١ – أحمد رامي

للأستاذ دريني خشبة

حاولت أن أكتب عن أحمد رامي غير مرة، فكان الشعر يغازل قلمي، وكانت الدنيا كلها تمتلئ بالغناء والموسيقى من حولي، وكانت ترجمته تجتمع في خيالي نشيداً طويلاً تاماً متسق الألحان متنوع النغم، يضرب العقاد في مثانيه من هنا، والقصبجي في مثالثه من هناك، وبقية السادة النُّجُب، أفراد التخت الموقر الخالد من فوق ومن تحت، يلوّنون ويفتّنون، والصوت الإلهي المقدس يشيع في اللحن فيرف به في القلوب، ويملأ به المشاعر، ويطوف به على العذارى والمحبين والمكلومين، فَيطب للكبد الحّرى، ويأسو الفؤاد المحترق، ويكفكف الدمع في المقلة المؤرقة، ويرطب اللسان الظامئ، والفم الغرثان، بالأغاني الصامتة، والآهات الخافتة، فيتسلى محب، ويرق حبيب وكنت في كل مرة أستغني بهذا الخيال الجميل الحلو عن الكتابة، لأنه خيال روحي حي تمسخه الكلمات، وتزيفه تراكيب الجمل، ويُضَنُّ به على هذا الهراء الذي يسمونه التحليل في عالم النقد، وأسميه التزييف في دنيا الجمال. يتهمني كثير من إخواني القراء بأنني أسخو في ثنائي على الشعراء الذين أختارهم للكتابة عنهم، وابتسم لي الأستاذ الزيات مرة وأوصاني بالاقتصاد في هذا الثناء فمن عذيري إذا لم أجد مندوحة عن الثناء على رامي!. رامي الذي أغرم العالم العربي كله بأغانيه، فأنصت إليها، وتغناها، وهتف بها، وداوى بسحرها آلامه، وأروى بسلسالها أُوَامه، وجعلها مشرع حبه، وترنيمة وجده، وتعلّة هواه من منا أيها الإخوان لم يخل إلى نفسه فوجدها تردد أغاني رامي؟ ترددها راضية وترددها محزونة، وترددها مشوقة وترددها هائمة وترددها فرحة مرحة طروباً! من من أبناء هذا الجيل لم يملأ رامي عشرين عاماً من عمره السعيد المديد بما يمتلئ به قلبه من شعر وغناء ومحبة؟ من منا لم تسحره منظومات رامي التي أودعها أسرار قلبه، وسقاها مُنْهَلٌ دمعه، وخلط بها دمه ونجوياته وأمانيه؟!

إن رامي العظيم الخالد، هو ذلك النبع الأول الصافي ذو الخرير، الذي تفتأ الحمائم الوُرق تحوّم من فوقه وتهوى إليه، لتحسو من صفحته الحسوة والحسوتين تبل ظمأ وتشفي جُواداً، ثم تسكن إلى الأفنان لتملأ الدنيا هديلاً، وتبشر المحبين برسالة رامي. رامي الذي يقول منذ ربع قرن:

تغلغل الحب في فؤادي تغلغل الماء في الغصون

وأرسل الحسن في قريضي ... من نوره الواضح المبين

فجاء أحلى من الأماني بَسمن لليائس الغبين
وجاء أشجى من الأغاني نَديَن بالوجد والحنين
يا ريشة الوهم صوّري لي في صفحة الخاطر الحزين
ما جف من يانع جَنِي ... وغاض من سلسل مَعِين
ويا طيور الخيال خفي في دولة الليل والسكون
وابكي فضاء صدري ... ورجعّي من صدى أنيني
ورفرفي في على فائت تقّضي ترفضّ من ذكره شئوني

ويخيل لي، وأنا أردد هذا الشعر الجميل من شعر رامي الذي حفظته منذ ذلك العهد، أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يكتب عن رامي دون أن يغازل الشعر قلمه كما يغازل قلمي الآن. وللكتابة عن الشعراء الممتازين أو الأدباء الممتازين خطط متنوعة سهلة كلها، يسير على المؤرخ أو الناقد.

ولعل أصعب هذه الخطط وأشدها عسراً على الناقد أو المؤرخ، هي تلك التي يغازل الشعر فيها قلمه، فلا يدعه يقول ما يريد، ولا يتركه يسير في تلك السبل السهلة المعبدة التي سار فيها الكتاب قبله. فيبدأ بكلمة عن نشأة الشاعر والبيئة التي أرضعت بلبانها خياله وغذت بثمارها وجدانه، وسلطت ظبائها وألوانها وأضواءها على قلبه تنوشه وتطبع على شغافه الأحمر والأصفر والوردي والبنفسجي، وتضوّي سويداءه استعداداً لتلقي وحي السماء ثم يتناول بعد ذلك الظروف التي هيأت للشاعر قول الشعر، ومما يتردد في تلك الظروف من غزل ونظر ودعابة، تنقلب آخر الأمر إلى قلب يرتجف ولسان يتلجلج، ودمع يترقرق وعين مؤرقة، وكبد محترقة وخيال كامل شامل يتسع للأرض والسموات، ويد تتناول القلم، هذا المخلوق العجيب، فتسجل الآيات البينات، ترسلها كلاماً موسيقياً موزوناً حافلاً بالمعاني الفريدة، ثم يفرغ - أي الكاتب أو المؤرخ - إلى شعر هذا الشاعر ينقده ويزنه، ويظل يقول لك هذا جيد وهذا رديء، وذلك متوسط، وذاك غامض، وتلك الفقرة لا معنى لها، وهذا الشطر لا خير فيه، حتى إذا كنت قد كونت لنفسك رأياً في الشاعر قبل أن تقرأ هراء الناقد. وحتى إذا كنت قد أغرمت بشعره، ورضيت عن طرائقه وموضوعاته، تسلمك لناقد المحترم بآرائه فلا يدعك حتى تغثي نفسك ويتقزز خيالك، وتمسخ الصورة الجميلة الرائعة الحبيبة فتصبح هولة أو سعلاة. أما الخطة التي يغازل الشعر فيها شباة القلم، فلا تتأتى إلا إذا كانت ثمة صلة روحية بين الشاعر والناقد. ولقد أراد المرحوم الأستاذ صادق عنبر أن يكتب كلاماً ما يجعله

مقدمة لديوان رامي، فلم يستطع أن يقول شيئاً. ولكنه كتب سطوراً جميلة، يحمل كل منها بيتاً منثوراً من الشعر، لا يصله بالبيت السابق ولا يربطه بالبيت اللاحق سبب من الأسباب. وإليك نموذجاً من أوائل هذه الأبيات:

عرفته فتياً يخف للشعر ويجتمع له. الخ

وعرفته وقد لبس الشباب، وإذا شمائل مرجوة المخايل.

ثم عرفته شاعراً غزلاً يشبه أن يكون كالبهاء. في الضحك والبكاء.

وإنك لتراه، فتقرأ شعره فيه. وتقرأ له فتراه في شعره، لقد رق مزاج شعره، وعذب على النفس اطراده. ويندر أن تلقاه إلا باكياً أو ضاحكاً. فإذا بكى. وإذا ضحك. وهكذا إلى آخر الصفحات الثلاث التي قدم بها للجزء الأول من ديوان رامي الذي يشمل شعر صباه بين سنتي ١٩١٦، ١٩١٧ وأنا والله أعذر المغفور له الأستاذ عنبر وأطلب من الله الرحمة، فرامي من الشعراء الذين تصعب الكتابة الموضوعية عنهم، وقد غازل الشعر قلم عنبر كما يحاول أن يغازل قلمي الآن، وكما غازل قريحة شوقي - رحمه الله - حينما قدم للجزء الثاني من ديوان رامي بأبيات ثمانية يقول في أولها:

ديوان رامي تحت حاشية الصبا عذب عليه من الرواة زحام

بالأمس بل صدى النهى وسميه واليوم للتالي الولي سجام

شعر جرى فيه الشباب كأنه جنبات روض طلهن غمام

في كل بيت مجلس ومدامة وبكل باب وقفة وغرام

والبيت السابع

أما زهير فقد سما (هرم) به ولتسمون بشعرك الأهرام.

وإذا استثنينا البيت الثالث من هذا الكلام العجيب، طلبنا من الله لشوقي الرحمة، كما طلبناها للأستاذ عنبر. ولعل أصدق كلمة قيلت في شعر رامي هي تلك التي كتبها حافظ - رحمه الله - يحي بها هذا الجزء الثاني الرائع من ديوان رامي، الذي يجمع شعر صباه أيضاً (١٩١٨ - ١٩٢٠). قال حافظ:

(أدمنت النظر في شعر رامي، فإذا به من ذلك النوع الحسن الذي يعجزك تعليل حسنه. تسمع البيت منه فيشيع الطرب في نفسك قبل أن تعلم مأتاه، وقبل أن يتطلع العقل إلى فهم معانيه. ذلك

هو شعر النفس، وهو أرقى مراتب الشعر ورامي شاعر موفق الشيطان إذا تغزل أو وصف، رقيق حواشي الألفاظ، بعيد مرامي المعاني، يقول الشعر لنفسه، وفي نفسه، فإذا جلس إليه، وسنح له المعنى العصري، تخير له اللفظ السَّرِي وهو كثير الاعتماد على نفسه في شعره، فلا يتسلق على كلام غيره، وأثر ذلك بيّن في غزله ووصفه، فقد نحا فيهما منحى عصرياً جديداً، أكرمهما فيه عن عنجهية البداوة، وركاكة أولئك الذين تصدوا لقرض الشعر، فوضعوا أمامهم مشقاً من الشعر الغربي، وترجموا معانيه، ولكن إلى ألاّ لغة، فجاء أسلوبهم يرتضخ أعجمية، وأسلوب رامي يتدفق عربية. فديوانه سلوة العاشق، ونزهة المتأمل)

وحافظ رحمه الله صادق جداً في معظم هذه النظرة السريعة المركزة في شعر رامي، وإن ظلمه بقصر نبوغه على الغزل والوصف، إذ عبقرية رامي عبقرية متعددة النواحي، إذا جاء الغزل وأشعار الغرام في أولها، لم يأت شعر الوصف في المرتبة الثانية مباشرة، بل سبقته ألوان زاهية زاهرة من شعر رامي.

في مقدمتها ذلك الشعر الإنساني الرفيع الذي سوف نتحدث عنه بعد أن نذكر لك هذا الكلام جرى الكتاب على إثباته والذي تعرف أكثره؛ فنذكر أن رامي ولد بالقاهرة سنة ١٨٩٨، أي في السنة التي عرفنا أن أخانا الشاعر المحبوب (ناجي)، وأن شاعرنا الجليل الموهوب (عزيز أباظة) قد ولدا فيها. وأن والده كان طبيباً كبيراً معروفاً، وأنه تخرج في مدرسة المعلمين، ثم زهد في حرفة التدريس ففرغ لقرض الشعر مستعيناً براتبه الحكومي ومنصبه في دار الكتب، وما تدره عليه أغانيه ودراماته الشعبية من ربح حلال لا أظن أنه ينتفع بمعظمه، وإنما ينتفع به البائسون والمحتاجون.

(يتبع)

دريني خشبة

٢ – احمد رامي

للأستاذ دريني خشبة

كل الناس على أن موهبة رامي في الغزل وشعر الغناء هي خير مواهبه. ونحن لا نرى هذا الرأي بالرغم من هذه الخمسين والمائة أغنية التي تملأ آذاننا وقلوبنا، وتتدفق مع أعذب الأصوات وأرخمها في كل جوارحنا، وتطوي مع الأثير في كل لحظة ألفاف الهواء حول كواكبنا؛ فتداوي كلوم المحبين، وتذهب بلواعج المدنفين وتترنم بها الأصوات كلها حتى المنكر منها والأجش، فيخيل لها أنها صارت بلابل!

لا نرى مطلقا أن موهبة رامي هي روحه الغنائية التي تجيد الغزل، وتفتن في مذاهبه هذا الافتنان الحلو الموفق، الذي يحس الناس في ثناياه حرارة الحب، ويتسمعون إلى دقات القلوب العاشقة، ويشهدون من فنون الجفون المؤرقة، والأنفاس المحترقة، أشكالا وألوانا

إن رامي الذي يحترق من أجلنا، ويذيب قلبه وروحه كيما يطب لنا، هو شاعر الإنسانية ولسانها الناطق وترجمانها الأمين

إن الذين يزعمون أنه شاعر الليالي الحمر، والسهرات الصوادح، أولئك يصدفون عن حقيقة رامي، ويخطئون جوهره، إنما رامي شاعر الإنسانية كلها. الشاعر الذي صدق في التعبير عن آلامها، لأنه بلا منها الشيء الكثير الشيء المتنوع، والغزل – أو شعر الحب – هو أحد الألوان التعبيرية الصارخة التي أذهلت الناس عما هو أشد منها من ألوان رامي التعبيرية الأخرى، لأنهم سمعوه من هذين اللسانين الخالدين وحيا بديعا، لا تسجيعا ولا ترجيعا، ولو ذكرنا قلب رامي المعذب ونحن نلتذ أغانيه تشيع بالنشوة في أرواحنا، لحق أن نتذكر قوله:

أنا في غيهب الحياة منار ضاء من فرط نوره الديجور

لم أذق في الحياة للسعد طعما كيف يدري الحلو الفم المرور

أطرب الناس بالأغاني من الش عر وفي القلب لوعة وسعير

ولذكرنا أن رامي يستعين بشعره للتنفيس عن آلامنا بما ينظمه لنا من تباريح قلبه شعرا نحسبه يفيض بهجة في حين أنه يقطر دما. ونخاله يندى بشاشة في حين أنه يتترى ألما

دعيني يا بنات الشعر أبكي على ما نالت الأيام مني

أمانٍ مثّن في قلبي صغارا   كما ذوت الأزاهر فوق غصن
وزرع طاب لم أقطف جناه   وكم بذرت يداي ولست أجني
وأهلٍ أصبحوا بددا وشدوا   إلى دار النوى أرحال ظعن
ولست أطيق بعدهم، ولكن   أروح عن فؤادي بالتمني
فكوني يا بنات الشعر أهلي   وأشياعي لدى البلوى وركني
وغني من أساك وألهميني   فبينك في الهوى عهد وبيني
أراك بخاطري وأودّ أني   أراك بناظري وأن تريني
إذن أشفقت من وجدي وسقمي   وشفّك لاعجي وشحوب لوني

ولسمعناه يستعبر قائلا:

أحن إلى الماضي كما يذكر الضحى   مطالع نور ترمي به الفلوات
وأندب أيامي اللواتي تصرمت   لشعري إذا ضمتني الخلوات
وفي الشعر تأساء وفيه رفاهة   وفيه لقلب يائس نشوات
أنيم به حزني كما يبعث الكرى   إلى عين طفل صارخ نعسات
وأكذب نفسي أنني إن صدقتها   أغار عليها الهم والحسرات
لقد ألفت نفسي الشقاء وإن يكن   أليما فمن آلامه الخطرات
وما يحسن الأشعار إلا معذب   تضرّمُ في أحنائه الحرقات
ولو كان كل ناعما في حياته   لما هزتكم هذه النفحات

لقد صنعت لنا الآلام من رامي هذا الشاعر المرهف الحس، الدقيق الشعور، الذي حرك ألسنتنا كما ملأ عواطفنا، بأغانيه ولعل كارثته في المغفور له والده العزيز – الدكتور محمد رامي – المتوفى بالقاهرة يوم الأحد ٢١ سبتمبر ١٩١٩، هي التي وجهت قلب رامي، أو شعره، تلك الوجهة الإنسانية التي تجتمع فيها عواطف الألم والرحمة والرثاء للضعفاء، وإسعاد المحزونين، وتمني الخير للناس جميعا. وذلك أن الشاعر قد ألقيت على كاهله بوفاة والده مسئوليات عائلة كاملة، فيها الأم البارة الرؤوم وفيها الأخوة الصغار الخُضْر كأفراخ القطا، وفيها الشاعر نفسه الذي لم يكن يغني، وينظم خلجات شبابه الغض وصباه المتفتح، باقات يانعة من هذه القصائد التي يضمها الجزء الأول من ديوانه ١٩٢٦ – ١٩٣٧ حتى قذف بقلبه جميعا في خضم اليتم

المصطخب ذي الأمواج والأتباج، ولهذا لا نكاد نرى ديوانا عربيا من دواوين شعرائنا يفيض بالروح العائلي، كما يفيض به الجزء الثاني من ديوان رامي وما جاء من ذلك في الجزءين الأول والثالث، وما لم ينشره رامي من شعره في ديوان بعد. وذلك إذا استثنينا ديوان (أنات حائرة) لشاعرنا الجليل الأستاذ عزيز أباظة بك اسمع إلى رامي ينظر إلى سرير أبيه المريض، ثم يتوجع ويقول من قصيدته (نهر الحياة)، ذاكرا أخاه النازح، وأمه وأخوته:

يا نهر أيامي، أما آخر لشقة العيش التي أقطع

أربت همومي فنبا مضجعي وصاحب الآلام لا يهجع

أب طريح في فراش الضنى أقض في رقدته المضجع

تتابعت في الليل أناته وكل أنات الدجى تسمع

شكا من الداء الذي شفه واهمرت من عينه الأدمع

وقال أخشى أن يحل الردى ولي فطا زغبٌ ولي مطمع

أخاف أمضي عنهم تاركا عشهم تلوى به رعرع

ولي أخ يا نهر عيشي خلت منه ديار وخلا مهمع

وكان أنسى في ضمير الدجى وكان لي من عطفه مرتع

فهل لذي العلة من صحة وهل لنضو نازح مرجع

وهل لليل العيش من مشرق يجلو ظلام اليأس إذ يطلع

لو كنت فردا لم أرع إربة إن كان يعطي الدهر أو يمنع

لكن لي أما ولي اخوة ولي أبا في ظله نرتع

ولا يطيب العيش إلا إذا سقاهم حوض المنى المترع

هذا شعر يحس فيه القارئ لذع الألم الذي يرتجف أمام شبح اليتم ثم مات الوالد المريض، وبعد أن خفت وقدة الحزن في نفس رامي، رثاه بتلك المنظومة الفريدة التي أومأ فيها إلى أيام مرضه، ثم إلى الأماني التي كان الوالد يعلقها على الشاعر الشاب، وإلى الوضع الذي وضعته فيه المقادير بعد هذا الخطب الجلل:

كم جن والد على أبن ولكنا جنينا عليك – صفحا وغفرا

ثم هنيئا فليس بالميت من خلّ ف من بعد موته ابنا أبرّا

أنا أحنو على اليتامى وأرعى أيما عاشرتك بالطهر دهرا
ثم أحيي ذكراك ميتا وقد خلد ت ذكرى تضوع في الكون نشرا

ولم يفتأ رامي يذكر أباه ويرعى عهوده، ويذرف عليه دموع أمانيه:

كم مر بي عيد تمنيت أن يكسوني فيه جديد الثياب
وكم نقضت بي ليال ولا سمير لي فيهن إلا الكتاب
وحين أدركت المنى لم أفز من ثغره بالبسمات العذاب
وكم جلسنا أسرة نرتجي رجوعه بعد طويل الغياب
نرنو إلى موضعه بيننا وقد خلا من بشره والخباب

نشأت في يتم ولي والد فما اكتفى الدهر بهذا العذاب

نرنو إلى موضعه بيننا! ما أبسط هذا التعبير وما أبدعه وما أشد لذعه! لقد كان يتم رامي مفجر ينابيع الإنسانية في قلبه الشاعر النابض الكسير! لقد صحبه ذلك الشعور باليتم حتى في رثائه أصدقاءه، ولعل ما رثى به صديقه، فقيد الأدب والشعر والمسرح المرحوم محمد سمور، هو من عيون الشعر العربي في باب رثاء الأصدقاء:

كيف أرثيك يا رفيق شبابي يا نجي من شيعة الأحباب
أبدمعي؟ الدمع أرخص ما يب كى به صاحب على الأصحاب
أنت أولى بأن يبلل مثوا ك بنضح من الفؤاد مذاب

وهو يلم في القصيدة كلها تلك الإلمامات العائلية المؤلمة التي لا يقدرها إلا من جربها، والتي تذيب القلوب وتقطع نياطها ألما وحزنا:

طار لبي لما نعيت وضاقت بي دنيا كثيرة الأسباب
تلك حالي؛ فكيف حالك يا تيم ور لما غدوت في الغياب
خلت الدار منك يا بهجة العم ر وأقوت من سرحها المخضاب
ثم أضحت (ريري) تنادي أبي أيْ ن ولا من يرد رجع الخطاب
طرت من عشها وكنت لها عط فا وزقا تحت الظلال الرطاب

ثم طال انتظارها لك حتى يئست بعد صبرها من إياب
فاطمأنت على مصارحة الده ر وقرت على أليم المصاب

وقد لزمت رامي هذه الروح الرثائية في معظم شعره، وفي معظم نظراته التي كان ينظم فيها الشعر لنفسه خاصة، ونقول لنفسه خاصة، لأن لرامي منظومات كان (يصنعها تحت الطلب)، وهي منظومات – أو أغان – لنا فيها رأي ربما أعلناه فيما بعد. وتتجلى هذه الروح الرثائية في قصيدته (إلى أخي البعيد ج ٢)، التي يتمنى فيها أوبة هذا الأخ المسافر. فيحسب الإنسان أنه يرثيه بشعر من أجود أشعار الرثاء. وتتجلى أيضا في قصيدتيه الفريدتين (الجمال العاطل – والجمال الراحل ج ٢). ثم قصيدته (اللقيط)، وفي (غريب يغني)، و (مستقبل الحب)، و (إلى البدر)، و (شكوى عليل)، و (طيور الأماني)، و (شعر الدموع)، و (الشيب الباكر). إلى آخر هذه المجموعة المؤثرة من أشعار رامي الإنسانية الباكية التي جمعها الجزء الثاني من ديوانه، والتي ترن أصداؤها في جميع أغانيه

(يتبع)

دريني خشبة

٣ – أحمد رامي

للأستاذ دريني خشبة

لعلنا لم نفاجئ أحدا بتلك الصورة الشاحبة التي حاولنا أن نرسم بها خطوطا سريعة لقلب رامي. ذلك القلب الذي كان الناس يحسبونه خلق للفرح والمرح والغناء، والليالي الساهرة الطروب. فإذا هم يرونه قلبا ينضح بالآلام، ويفيض بالمآسي، التي استحالت في فم الشاعر شدوا حزينا باكيا، وغناء رقيقا رفيقا موجعا. وإذا هم يرونه قلبا عالميا يخفق بآمال الإنسانية وآلامها. يكلم الناي ويناجي البدر، ويتوجع للقيط، ويخاطب الطير، ويرثي للجمال الراحل، ويرق للغريب، ويندب حظ المزار السجين، وينتفض لليتيم، ويفي للحبيب، ويأسى للزهرة الذابلة، ويخفق بجناح الرحمة فوق قبر الجندي المجهول

ونحن لا نعتذر عن هذه الصورة الشاحبة ما دامت هي الصورة الحقيقية لقلب رامي، وما دامت هي النبع الصافي الذي شاعت موسيقا حريره في أغانيه. في تلك السنين العشرين التي ظل رامي طوالها أسطع شاعر من شعراء الغناء في مصر، بل في العالم العربي كله

لم يطبع رامي من شعره الكثير الزاخر غير هذه الدواوين الثلاثة التي يجمع أولها شعره بين سنتي ١٩١٦ و١٩١٧، وثانيها شعره بين سني ١٩١٨ و١٩٢٠، وثالثها شعره بين سنتي ١٩٢١ و١٩٢٥ كما نشرت له سنة ١٩٤٢ مجموعة من شعره لأغانيه. ويختلف الجزء الثالث عن الجزء الأول والثاني اختلافا شديدا بينا؛ إذ نرى الشاعر في أول الديوان يشكو عزوفا عن قول الشعر. ونراه يحن إلى جنته الأولى التي طالما خفق فيها بجناحيه. وحلق فوق أفنانها يغازل الحور ويعب من الخمرة الإلهية. ونراه لا ينظم في العام الطويل العريض غير قصيدة واحدة أو قصيدتين يتشوف فيهما إلى عروس غابه التي كانت تلهمه وتوحي إليه. ثم صدت فجأة. وولت لا يدري إلى أين.

أين وحي الخيال والوجدان يستقي منه خاطري ولساني
طال صمتي حتى خشيت على شعـ ـري يفنى وخفت وأد بياني
أسكوت والكون جم المعاني وسكون والنفس في ثوران
هذه نضرة الطبيعة تتنا ـل جمالا على مُحيَّا الزمان
وحرام في ليلة البدر ألا تسمع الأذن سجعة الكروان
وحرام ألا يُحيي طلوع الـ ـفجر طير الصباح بالألحان

وحرام ألا تميل غصون ال   روض في هبة النسيم الواني
لست أدري أأستحم لخطب الد   هر أم أنطوي على أحزاني
يا بنات الشعر انفحيني وغن   يني وهاتي من شيقات المعاني
ودعيني إما أنوح على ح   ظي وإما أبكي شبابي الفاني
لا أريد المضي عن هذه الدني   ا ولم تمتلئ ببث جناني
إن صعبا على المزاهر تبلى   لا تناغى على أكف القيان
وشديدا على النفوس مدارا   ة أساها بالصبر والكتمان
فاجعلي أنّي رويا فبعض الن   وح أشجى من مطربات المعاني
ودعي همسة الضمير تدوّى   من عميق الآباد في الآذان
ربما شاق لحنها قلب محزو   ن ورافت ألفاظها سمع عان
كنت رطب اللسان ينطف منه   ريّق السحر بين آن وآن
وإذا بي حرمت نفسي سلوا   ها وحرّمتها على إخواني

هذه أبيات من قصيدة جميلة لم يقل رامي غيرها في مدى ستة أشهر وإليك أبياتا من قصيدة أخرى لم يقل غيرها في مدى ستة أشهر كذلك:

إني لأخشى أن تموت عواطفي   ويجف ذاك النبع من أشعاري
وتقر نفسي بعد ثورتها فلا   يهتاجها شيء سوى التذكار
وترى جمال الكون عيني خاليا   من بهجة الآصال والأسحار
إني ليحزنني بقائي صامتا   ولدي هذا الكثر من أفكاري
وأكاد أندب خاطري ومشاعري   وهما إلى نفائس الأذخار
في الشعر تأسائي وفيه رفاهيتي   وإليه أشكو صولة الأقدار
فإذا سكت فقد حرمت شكايتي   ولرب شكوى نفست أكداري

ترى، لماذا صمت رامي هذا الصمت الذي أفزع خياله، وأرق شيطانه، وجعل عرائس الشعر تجأر بالشكوى من طول ما سكت البلبل؟! إن رامي يجيب على ذلك بقوله:

هل زال من دنياي حسن هزّني   أم قرّ في قلبي لهيب نار؟

حب تضرم في حنايا أضلعي فأصابه يأس بطول قرار (؟؟)
وبكيته حتى مللت بكاءه فسكت منطويا وحزني وار
وأردت أسدل فوق ماضي صبوتي من طول أيامي فصول ستار
فإذا الحياة خلت من الحسن الذي قد كان فيها متعة الأبصار
وإذا بها أفوت من المعنى الذي قد راقني في سالف الأدهار
وإذا بقلبي في مناحي أضلعي مثل الغريب غدار رهين سفار
مستوحشا في مهمه متطاول بعدت مطارحه على الأنظار

ويزيدنا علما بمأساة قلبه، فيقول هذه الأبيات الخوالد:

لمن الغناء أقوله فأصوغه من ادمعي ودمي وطيب سراري
ومن الذي يوحي إلى من الهوى قبس الخيال، وصدحه الأوتار
ما أطلق الطير الصدوح بشدوه مثل ابتسام الزهر والنوّار
أو نضر الزرع البهيج زهوره كالنسمس والماء النمير الجاري
أو أرقص البحر الخضم عبابه كالبدر يشرق باهر الأنوار
الحب نبع الشعر منه تفجرت عين المعاني والخيال الساري
الحب لحن النفس وقعه على وتر القريض بنان موسيقار
الحب يفسح في الحياة مراحها ويحفها ببدائع الآثار
فلرب ساعة خلوة هفافة طالت عن الأجيال والأعمار
ولرب وجه أبدعت قسماته أبهى من الجنات والأنهار
ولربما فاقت مناجاة الهوى معنى ومغزى ممتع الأسفار
ولرب ثغر باسم أحيا المنى وأطارها في النفس كل مطار
هذا هو الحب الذي أشتاقه فيهيج ساكن روحي الزخّار
ويمدّني بالشعر معنى ساميا ويبث فيه جلائل الأسرار

وبعد. فنخشى إذا أطلنا الاقتباس على هذا النحو أن يخرج المقال مكتوبا بقلم رامي نفسه. وبعد أيضا، فلنسأل رامي عن هذا الحب العجيب الذي تضرم في حنايا أضلعه، وبكاه حتى مل بكاءه، ثم سكت

منطويا عليه وحزنه وار، وأراد أن يسدل ستارا على ماضي صبوته، فلما فعل، وجد الحياة قد أقفرت من معناها الجميل الذي كان يروقه في الزمان الغابر. وإذا.

وإذا بقلبي في مناحي أضلعي مثل الغريب غدا رهين سفار

مستوحشا في مهمه متطاول بعدت مطارحه على الأنظار؟!

ولله هذه الصورة الرائعة للقلب الذي أقفر من الحب، يصورها خيال رامي الشاعر المبدع الفنان! إنها لصورة تذكرنا بصورة صديقنا العبقري الدكتور إبراهيم ناجي، صاحب القلب:

الشهيد المتواري في الضلوع!

وهنا. يجب أن نقف قليلا لنقذف في أسماع شعرائنا خاصة، وأدبائنا عامة، بذلك السؤال الذي طالما هممت أن أكتب في موضوعه كلاما طويلا لا ينتهي، أناقش فيه أولئك الشعراء والأدباء الحساب عن قصص قلوبهم، وأنباء حبهم؟

لماذا لا يصارحنا سادتنا الشعراء والأدباء بأنباء ذلك الحب الذي يخفونه عنا، وهم يعلمون أن:

الحب نبع الشعر منه تفجرت عين المعاني والخيال الساري

والحب لحن النفس وقّعه على وتر الفريض كنار موسيقار

لماذا يتركنا سادتنا الشعراء والأدباء في ذلك الظلام الدامس من أنباء حبهم، ونحن لا نفتح كتابا من كتب تاريخ الأدب في الشرق أو الغرب إلا ونطلع من أنباء غرام الشعراء والأدباء المفصلة تفصيلا تاما ظريفا ما نقف منه على أهم صفحة في كتاب حياة كل منهم؟ أي شاعر من شعراء العرب الجاهليين أو المخضرمين أو الإسلاميين أو الأمويين أو العباسيين لا نعرف قصة حبه رائعة مفصلة؟ وأي شاعر من شعراء الغرب لم تكتب عن أخباره الغرامية الكتب والمؤلفات؟ هل يعتبر شعراؤنا الخوض في أحاديث حبهم فضيحة؟ حبهم الذي أثمر لنا أشهى ثمار الشعر المصري الحديث، والقصص المصري الحديث، والأدب المصري الحديث؟

إن إمتناع رامي هذه الحقبة الطويلة عن قول الشعر بسبب نكبته في حبه الذي نجهل أخباره، يشبه إمتناع ناجي عن قول الشعر تلك الحقبة الطويلة التي تكلمنا عنها حينما كنا نكتب عنه، وذلك بسبب نكبته في حبه الذي نجهله كذلك، والذي أبى ناجي أن يحدثنا عنه (لأن أوان ذلك لم يؤن بعد) كما قال لنا مرة ونحن نحاوره في ذلك:

لماذا نجهل حديث حب ناجي، ونحن نعلم حديث حب شلي؟

ولماذا نجهل حديث حب رامي، ونحن نعلم حديث حب قيس؟

ولماذا نجهل حديث حب علي محمود طه، ونحن نعلم حديث حب بودلير؟

ولماذا نجهل حديث حب العقاد ونحن نلم بأحاديث حب بيرون؟

وهذا الغزل الرقيق الذي يطرفنا به الجارم، ولا يزال يطرفنا به، حتى في المؤتمرات الطبية، ما خطبه؟ حب من هذه التي لا تزال توحي إلى أستاذنا الجارم هذا الغزل الراقص الرقيق يا ترى؟!

لماذا تعدون الكلام في أحاديث القلوب عيبا لا ينبغي، وأنتم تطرفوننا بكل هذا الغزل الجميل العلوي الخالد؟

لقد حدثنا العقاد في ساره أحاديث ملفوفة عن وقائع قد تكون فصولا من كتاب حبه

ولقد حدثنا الحكيم في عودة الروح أحاديث مبرقشة عن وقائع قد تكون فصولا في كتاب حبه ، الذي ربما كان عصفور من الشرق وراقصة المعبد وبعض قصصه الأخرى فصولا منه كذلك ولقد حدثنا المازني أحاديثه عن مغامراته بمثل ذلك الأسلوب غير الصريح

أما الأستاذ عزيز أباظة فقد كان أصرح أدباء مصر الحديثة وشعرائها جميعا، حينما صارحنا بقصة قلبه في ديوانه الباكي (أنات حائرة)

هذا سؤال ألقيه في جو مصر الأبي، وأرجو ألا يثير زوبعة!

وهذا سؤال ألقيه وقد أحسست بالشوك يدمي قدمي وأنا أسير في جنة حب رامي. هذا الحب الذي خاض الناس فيه كثيرا، و لم يعرفوا حقيقته إلى الآن.

دريني خشبة

٤ – أحمد رامي

للأستاذ دريني خشبة

لم نستطع أن نهتدي إلى شيء في قصة حب رامي، هذا الحب الذي لمسنا أثره في الكلمة السابقة، والذي تفجر بعد ذلك ألحانا صافية، فيها كثير من الدموع، وفيها كثير من الألم، وذلك حينما دخلت في حياة الشاعر مطربة الخلود الآنسة أم كلثوم، فوجدنا حياة تضطرب بتلك الآلام التي تختلط فيها ذكريات اليتم والحب. اليتم العابس المتجهم ذي المسئوليات، والحب الخائب المنكوب ذي الصبوات، وجدته يقول:

هل زال من دنياي حسن هزني؟ أم قر في قلبي لهيب النار؟

حب تضرّم في حنايا أضلعي فأصابه يأس بطول قرار

وبكيته حتى مللت بكاءه فسكت منطويا وحزني وارِ

وهذا كلام سهل لين، لكنه مؤثر، بل مُبك. وأي مبك. لا سأتر حينما يسمع رامي في رقته وسمو عاطفته، يهتف بهذا الشعر الجميل السهل اللين، شاكيا باكيا، ذارفا دموع قلبه، مصعّدا أنات روحه، واقفا عند الشطر الأخير:

فسكت منطويا وحزني وارِ!

وقفة العاشق المكروب أمام هذا الحطام المقدس من بقايا حبه!

لقد أرهفت أم كلثوم سمعها حينما سمعت راميا يئن ذلك الأنين الموجع وسط جنته الذاوية الذابلة، فوجدته يسائل الأطياف التي تهمهم من حوله:

لمن الغناء أقوله فأصوغه من أدمعي ودمي، وطيب سراري

ومن الذي يوحي إليّ من الهوى قبس الخيال وصدحة الأوتار

ما أطلق الطير الصدوح بشدوه مثل ابتسام الزهر والنوار

أو نضر الزرع البهيج زهوره كالشمس والماء النمير الجاري

أو أرقص البحر الخضم عبابه كالبدر يشرق باهر الأنوار

وتلفت رامي فجأة على صوت رخيم رضي يقول له:

(أيها الطائر المنفرد المعذب المهيض الجناح، صُغْ غناءك لي أملأ به الكون، وأجعل لك به دما جديدا وحياة جديدة. صُغه لي أوح إليك من أفانين الهوى ألوانها الزاهرة الباهرة، وأنفض الرماد عن قبس خيالك،

والصدأ عن صدحة أوتارك، وأبتسم لك ابتسام الزهر والنوار، وأشرق على عباب بحرك الخضم إشراق البدر باهر الأنوار، وأدفئ جنتك بمثل الشمس التي جرتْ في فلكك الدوَّار وأُرْوِها بمائي النمير الجار، وأترددْ في أنفاسك عطرا، وأتبلجْ في ظلام بأسك فجرا، وأرد عنيك شيطانك النافر، وأُذُدْ عنك وسواسك الساهر، واسحر لك بنات غابك، وعرائس عُبابك، فتفرش لك طرقات جنتك بأفواف الزهر، ولآلئ البحر، وتمدك بروائع الفكر، ونفثات السحر. و. و .). وما إلى ذلك مما يغازل الأقلام من الشعر، وهي تكتب عن رامي وأم كلثوم

وانتفض فؤاد رامي لذلك الصوت الرؤوف الرحيم انتفاضة هائلة لم تزل تردد ملء أضالعه عشرين عاما، وأحسبها سوف تتردد فيه حتى يشيخ رامي، وحتى يهرم معه أناس آخرون

لقد رأينا كيف عز على رامي أن يصمت هذا الصمت الذي أفزعه وشغل باله، وهو شاعر الإنسانية الحزين الذي يقول:

الحزن أدبني، وهذب خاطري وأنالني تحنو الخيال السامي
وأسال أسراب الدموع فصغتها صوغ المعاني في شجي نظامي
وأرق إحساسي ومدّ مشاعري فوصلت كل الناس في أرحامي
قاسمتهم أحزانهم وحملت من أعبائهم سطرا من الآلام

فلما سمع من أم كلثوم هذا النداء الرخيم الندي الرضيّ، خفق قلبه، واستجاب له، وحلت مطربة الخلود عقدة السحر عن لسانه، فأنطلق يصوغ لها أغانيه الخالدة (من أدمعه ودمه وطيب سراره)، وانطلقت هي (توحي إليه من الهوى، قبس الخيال وصدحة الأوتار)

ولقد كان دخول أم كلثوم في حياة رامي ثورة كاملة في تلك الحياة اليتيمة الحزينة الباكية، ولقد استطاعت أم كلثوم أن تلهم راميا كل هذه الثروة الطائلة من المعاني (البكر!) التي لم يسبقه إليها أحد من الشعراء (فيما نعلم) والتي سجلها في (شعره الجديد) وأغانيه المصرية العذبة التي أنقذت الغناء المصري من الإسفاف الذي تردّى فيه زمانا طويلا قبل أن يهيئ له الله راميا، ليجدده، وليهذبه، ولينفي عنه ما كان يشوبه من خيال غث، وتعبيرات رخيصة، وغزل بارد مكشوف؛ مما سنخصص له كلمة مستقلة إن شاء الله

واستطاعت أم كلثوم كذلك أن تخفف من برحاء الحزن في نفس رامي، وان تلطف من لَذْع الحُرق التي كان ينطوي عليها من جراء نكبته في حبه، وقد اعترف هو بذلك في كثير من شعره الذي أخذ يرق ويصفو لدخول أم كلثوم فيه:

صوتك هاج الشجو في مسمعي   وأرسل المكنون من أدمعي
سمعته فانساب في خاطري   للشعر عين ثرّةُ المنبع
ودبّ في نفسي دبيب المنى   والبرء في نضوا لجوى الموجع
سلوى من الدنيا تسلي بها   قلب شديد الخفق في أضلعي
طال به السهد كأن الدجى   ضل به الفجر فلم يطلع
حتى إذا غنيتِ ذاق الكرى   ونام نوم الطفل في المضجع
كأنما لفظك في شدوه   منحدر من دمعي الطيّع
فيه صباباتي وفيه الضنى   يشكو ساريح فؤادي معي
نظمت أشعاري وغنيتها   منظومة الحبات من مدمعي
أودعتها الشكوى فما رق لي   من راح بالقلب ولم يرجع
ولو تغنّيتِ بها عنده   عاد إلى الود ولم يقطع

أما حديث هذا (الذي راح بالقلب ولم يرجع) فعلمه عند رامي الذي يقول بعد هذا:

يا من شَدَت بنسيب   ناجيت فيه حبيبي
وردّدت من شكاتي   ورجّعت من نحيبي
وأودَعت في الأغاني   تناوحي ووجيبي
فجرت نبع خيالي   من بعد طول النضوب
أنمت حزن فؤادي   بصوتك المحبوب
وكنتِ مألف حسي   وظل روحي الغريب
وآنس اليوم قلبي   نجيّه في القلوب
حتى غنيت بنجوا   ك عن هوى وحبيب

فنحن إلى الآن تلقاء حالات ثلاث من أحوال رامي. أولاها رامي المحب المحزون، وثانيتها رامي الذي يشكر القدر على هذا الصوت الذي أخذ (يدب في نفسه دبيب المنى، والبرء في نضو الجوى الموجع)، رامي الذي لا يزال يحن إلى إلفه القديم فيقول:

أودعتها الشكوى فما رق لي من راح بالقلب و لم يرجع
ولو تغنّيتِ بها عنده عاد إلى الود و لم يقطع

أما الحالة الثالثة، فرامي الذي أخذ يتسلى عن هواه القديم، حيث يقول:

أنمتِ حزن فؤادي بصوتك المحبوب
وكنتِ مألف حسي وظل روحي الغريب
وآنس اليوم قلبي نجيّه في القلوب
حتى غنيت بنجوا ك عن هوى وحسب

وذلك اعتراف صريح من رامي بأن قلبه قد آنس اليوم نجيّه في القلوب، حين غني بنجواه عن كل هوى وكل حبيب

أما تاريخ قلب رامي بعد هذه الأطوار الثلاثة من أطوار حبه فليس من شأننا، ونستطيع أن نقول إنه أصبح قلبا شديد الصلة بأذنيه. أي من هذه القلوب التي يعشق بالأذن قبل أن يعشق بالعين أحيانا وإن تلك عين رامي من أعشق عيون الشعراء الذين عرفناهم أجمعين. ونستطيع أيضا أن نلفت النظر إلى حب جديد شب في قلب رامي فجأة، وجعله لأول مرة في حياته يذكر الشك ويردده كثيرا في أشعاره الجديدة وفي أغانيه المصرية البارعة الرائعة:

تقول أسأت الظن بي فكأنما تخال محبا لا تسوء ظنونه
وهل قر قلب في هواه ولو غدا يساجله فرط الحنان حدينه
إذا لم يكن في الحب شك وحيرة فمن أين يحلو للمحب يقينهُ؟

ومن قصيدته (بين الشك واليقين):

قد أحاطت بك العيون فما أس طيع ألقي مكان عيني منك
وجرت حولك الأحاديث حتى كدت أنسى الذي أحدّث عنك
وأطافت بك القلوب وقلبي ضاع في غمرها ولما يُضعك

خبريني أي القلوب تناجي ن فقد همت في غيابة شك

ومن قصيدته (كذب الظنون) التي مطلعها:

أخاف عليك من نجوى العيون وأخشى أنه القلب الحزين

وأعلم ميل نفسك أن تكوني هوى الدنيا ومُنْبعث الحنين

فأخشى قولة العُذّال مالت لغيرك، وأمحي كذب الظنون

وقفت على هواك مطار فكري ومسرى خاطري وهوى فنوني

ووحّدت المعاني فيك حتى رأيت الكون خلوا من شجوني

فهل يرضيك ما ألقى فأرضي نصيبي فيك من ذل وهون

أم الظن المريب أضل رشدي وأرسل ليله يغشى يقيني

وأنت كما عهدتك في غرامي نعم قلبي الراعي الأمين

ومن قصيدته (ظن المحبين):

ساورتني الظنون فيها ولكن ي غالبت سوء ظني حينا

ثم سائلتها أتحمل عني بعض ما دق في هواها فنونا

فثنت طرفها وقالت أما تبر ح يا ظالمي بسيء الظنونا

وأنا لا أشيم في قلبك السا در نورا ولا أحس يقينا

كلنا سيئ الظنون وما أح سب إلا أن الأمانة فينا!

وكما يتردد ذكر الشك في شعر رامي الجديد تتردد الشكوى من كثرة المحبين الذين تتهاوى فراشات قلوبهم في نار حبيبه المقدسة:

يا من أخذت فؤادي أخذ العدو الحبيب

قلبي لديك فقل لي ما حاله في القلوب

وما أعذب مطلع قصيدته (هوى الغانيات)

كيف مرت على هواك القلوب فتحيرت من يكون الحبيب؟

ومن قصيدته (بين الشك واليقين):

وأطافت بك القلوب وقلبي ضاع في غمرها ولما يضعك

خبريني أي القلوب تناج ين فقد ضعت في غيابة شك

ثم تكثر في شعر رامي الجديد تلك المقطوعات الرقيقة التي لا نستطيع أن نسميها إلا (خطابات شعرية) كان يرسل بها إلى حبيبه الجديد، يملأها بالشكوى وبالشك والحنين وهو يصرح في معظم هذه (الخطابات المنظومة) بأن حبيبه هذا ذو صوت حنون حلو:

عشقتك للصوت الحنون وللشجي وما كنت أدري ما يجر هواك

غناء كشدو الطير في رونق الضحى ومعنى تناغي في سماء مناك

وإذا سئل رامي عمن يكون هذا الحبيب أجاب:

أرادوني على أني أبوح وهل يتكلم القلب الجريح

إلى أن يقول:

وتزدحم القلوب على هواها فسكري ولي كبد قريح؟

وبعد. فمن الفضول في تاريخ سعرائنا أن نعدو هذا الحد. مَنَّ الله على رامي بنعمة الهدوء في عش حياته العائلي. زوجا كريما ووالدا برًّا رحيما

دريني خشبة

٥ – أحمد رامي

(في أغانيه)

للأستاذ دريني خشبة

منذ أن أخذ رامي في نظم أغانيه للمطربة الآنسة أم كلثوم والثورة على أشدها في عالم الغناء المصري، بل عالم الغناء العربي كله. لقد كانت أغاني رامي حربا بين القديم والجديد. انتهت بفوز الوجهة الجديدة التي وجه رامي أذواقنا إليها، وإن وجد كثيرون من عشاق المذهب القديم لا يزالون يحنون إليه ويؤثرونه على هذا التجديد الذي لا يروقهم

وأغاني رامي – من حيث اللغة نوعان. نوع ألتزم فيه اللغة الفصحى، واختار له الديباجة المشرقة الناعمة السهلة، والألفاظ العذبة الموسيقية التي لا تتضمن لفظة واحدة يصعب فهمها على الشخص العادي.

ونوع التزم فيه العامية المصرية القاهرية الساحرة التي يفهمها العالم العربي كله، ويستعملها لحسن الحظ

وأغانيه – من حيث الكَيْف. أو من حيث الروح – نوعان كذلك. نوع نلمس فيه قلب رامي، ونحس فيه داءه القديم، وحزنه الممض المقيم؛ ومعظمه مما نظم للآنسة أم كلثوم. ونوع نلحظ فيه بيان رامي، وفنه، ومقدرته الكبيرة المأثورة على التلوين والتظليل والتخطيط، وإن لم نحس منه نبضة واحدة من نبضات قلبه المحترق، ولا طرقة مفردة من طرقات جفنه المؤرق، ومعظمه مما نظم لسائر المطربين غير الآنسة أم كلثوم، وسبب ذلك واضح معلوم، فقد كان صوت أم كلثوم الملهم الأكبر الذي أعاد إلى قلب رامي حياته الأولى:

حسبي من الشعر ومن نظمه   صوتك يسري في مدى مسمعي
سلوى من الدنيا تعزّى بها   قلب شديد الخفق في أضلعي
سمعته فأنساب في خاطري   للشعر عين ثرّة المنبع
وما ذروة المجد التي امتد درْبها   على حرّةٍ حزن ووعر جبل
سوى روحنة الأشعار وشّع سرْحها   أفانين أفكاري وزهر خيالي
وأنت بهذا الروض بلبله الذي   يرجّع في مغناه عذب مقالي
بعثتِ فنون الشعر فيّ فصغتها   وغنيتِها لحن الهوى فحلالي!

ونستطيع أن نسمي النوع الأول (أغاني الطبع) والنوع الثاني (أغاني الصنعة) ونقول إن معظم ما نظم رامي لأم كلثوم هو من أغاني الطبع، ولا نقول كله لأنه نظم لها كثيرا من (أغاني الصنعة) التي طلب إليه نظمها من أجل أشرطتها السينمائية، وعلى ذكر الأشرطة السينمائية نلاحظ أن راميا قد عوض حرارة أغانيه فيها بفنه الرفيع، وبيانه الرائع، ومقدرته على التلوين والتظليل والتخطيط كما قدمنا، ثم باستغراقه، في مناسبات بديعة، في تصوير الطبيعة المصرية الفاتنة الساكنة، والتعبير عنها ذلك التعبير الحسّي اللبِّن الذي تنعكس فيه أروع لوحات تلك الطبيعة الممتازة المليئة بالمفاتن. وليس معنى هذا أنه قصر تصوير تلك اللوحات على غير أغاني أم كلثوم، ولكن معناه أنه خص الكثرة الغالبة من أغاني غيرها بأروع تلك اللوحات، وإن أودع بعض أغانيها شيئا ثمينا قمينا بالملاحظة من تلك اللوحات

من منا لم يردد في نفسه ألف مرة (لحن الكروان) الذي نظمه رامي لشريط (دموع الحب)؟ والذي مطلعه:

يااللى بتنادي أليفك والفؤاد حيران عنه

ومن منا لم تأخذه مقدرة رامي الفنية في تصوير الليالي المصرية المقمرة التي ينسكب فيها تغريد الكروان العاشق فيزيدها بهاء وروعة؟!

كروان حيران سابح في نور القمر

والصوت رنّان ملا الفضا والخدر

والكون نعسان حتى الطيور ع الشجر

هايم ينادي حبيبه من غير ما يعرف فين

وإن كان ح يسمع نحيبه نختار تشوفه العين

وتتجلى في هذا اللحن الخالد مقدرة رامي في الانتقال من تصوير الطبيعة إلى بث الهوى وشكوى الهيام

أو هذا اللحن الذي مطلعه:

ما أحلى الحبيب بين الميّه وبين الأغصان

والذي يقول فيه:

آدي النسيم يشكي غرامه والغصن يسمع منه يميل

والطير يغني وكلامه يخلي دمع الزهر يسيل

أسمع لُغَى الطير الشادي لما يغني
اسمع حفيف الغصون تبكي بدمع الغمام
لما شجاها النسيم باحت بسر الغرام
والموج في حضن الموج نايم على شط النيل
إن نبهه الطير العايم يشبع تقبيل
كل الوجود حب وشجن في السر يشكي والعَلَن
تعالي واسي فؤادي أسقيك من كاس حناني
وأسمعك لحن حبي ونطير في جو الأماني!!

فهل رأيت هذا التمهيد الطويل من وصف الطبيعة المصرية ليتهي اللحن بهذا الرجاء الجميل في البيتين الأخيرين

وأسمعك لحن حبي ونطير في جو الأماني؟!

ثم ذاك اللحن البديع الذي يصف الساحل المصري في حلة المصيف:

يا ما أرق النسيم لما يداعب حمالي
خلاني وحدي أهيم واسبح في وادي آمالي
الجو رايق وصافي والبحر موجه يوافي
طال به الحنين للبر والبر عنه بعيد
فضل يهيم في البحر والشوق في قلبه يزيد
ولما جا الشط الهادي ريّح جنبه
ووشوش الرمل النادي وشكى غلبه
والشمس عند الأصيل راحيه شعور الذهب
تسبي العيون
والغيم بلونه الجميل خلاني وحدي أهيم
واسبح في وادي الأماني

وهكذا نجد أن اللحن كله أغنية عذبة تغمغم بها مصر المفتان على شاطئ البحر الأبيض. وإذا صح أن من كلام الشاعر كلمات تدل على شاعريته، فكل كلمة من كلمات تلك الأغنية طابع قوي تشهد لرامي بالشاعرية الفريدة الفذة. وحسبك أن تتخيل ذلك الموج الهائم في البحر، حتى إذا وصل إلى الشاطئ:

ريّح جنبه. ووشوش الرمل النادي!

ومن الصور القلية البارعة التي ضمنها رامي إحدى أغانيه لأم كلثوم، صورة الليل المصري المقمر في أغنية (أبات أناجي خيالك). كما نسمع الطبيعة المصرية بحقولها وأشجارها وأطيارها وأنهارها تنادينا أعذب النداء وأرقه في أغنيات: يا ما نديت. و. فاكر. و. بكرة السفر، وفرحة القلب، وليالي القمر، ووداع. ولكنها صور عارضة لا تستغرق الأغاني كلها، كما نلاحظ في الأغاني التي نظمت لغير أم كلثوم

ومن الصور الجيدة في أغاني رامي تلك التي يبرز لنا فيها القلب الإنساني في شتى انفعالاته الغرامية، وفي مواساته هوله، كأنه صديقه الأول. من ذلك تلك الصور الرائعة في أغنيته: يا طول عذابي، وما لك يا قلبي، وإن كنت أسامح، وسكت ليه يا لساني. ثم في أغنية، عنّه فيها الدموع:

عنيّه فيها الدموع والجو ساكن وصافي
والقلب بين الضلوع حيران على حل واقف
طاير يهفهف جناحه عدم في عشه الأمان
لا حد واسى جراحه ولا سقاه الحنان
لو كان مهنّى لبات يغنّي
لكن حزين شدوه أنين
ينوح على الأغصان وحده ويشتكي لليل وجده
الخ.

وأغاني رامي. مثل شعره. مليئة بالمعاني البكر التي لا نعرف أن أحدا سبقه إليها، وهو مع ذاك يؤديها في عذوبة ورقة متناهيتين. من ذلك قوله في أبدع أغانيه (ميعاد):

حرمت عيني الليل م النوم لأجل النهار ما يطمنّي
صعب عليّ أنام أحسن أشوف في المنام

غير اللي يتمناه قلبي

سهرت أستناه واسمع كلامي معاه

وأشوف خياله قاعد جنبي

من كتر شوقي سبقت عمري!!

وشفت بكره والوقت بدري!!

وإيه يفيد الزمن من اللي عايش في الخيال. الخ

والأغنية كلها – على طولها – معان جديدة مبتكرة، وإن لف الشعراء حولها أحيانا ودارروا.

وأعجب العجب في أغاني رامي أن بينها وبين ملحنها من فنانين الأماثل وشائج تشبه وشائج القربى الروحية. إنهم جميعا يفرحون بتلحينها لأن الشاعر الرقيق يفسح لهم فيها، ويلونها لهم تلوينا يغازل عبقريتهم الموسيقية. ويتنقل بهم في كل منها من الضرب العروضي الكامل، إلى المنظور البديع المتألق، ومن بحر إلى بحر، ومن أوزان يخترعها اختراعا

وأعجب من هذا كله ذلك التجاوب التام المنظم بين روح رامي وشعره، وبين الذين يتغنون من كبار مطربينا. فلقد يخيل للإنسان أن مؤلف شعر رامي وأغانيه لبس رامي وحده، بل هم أولئك المطربون والمطربات والموسيقيون والملحنون جميعا. إنه نجد كامل يحار الإنسان في تعيين بابه، ولكن الذي شك فيه أن راميا هو واضع حجر الأساس في ذلك البنيان المنيف الذي يتألف منه الغناء المصري الحديث.

دريني خشبة

٦ – نقد رامي

للأستاذ دريني خشبة

لا نحسب أننا فرغنا من محاسن رامي حتى نخلص إلى معايبه. إن كانت له معايب تزري بنبله الجم، وشاعريته الرقيقة، وروحه الذي ظل للعالم العربي كله بردا وسلاما وروحا ونشوة أكثر من عشرين عاما مباركا يسكب في آذاننا شدو قلبه النابض، وغناء وجدانه الفياض، وأنات نفسه الجريحة الدامية

١ – وأول ما يلفت النظر في حياة رامي وإنتاجه الأدبي هو انصرافه العجيب المفاجئ عن قرض الشعر، واقتصاره على توشية أغانيه المصرية الساحرة، وذلك منذ أن دخلت في حياته الآنسة أم كلثوم!. لماذا؟ لماذا يا ترى رضى الشاعر الإنساني أن يكون بلبلا فحسب؟! حقيقة إنه نظم ثلاثين أو أربعين أو خمسين مقطوعة. ولا نقول قصيدة. لكنها جميعا من ذلك النوع الذي ذكرنا آنفا أنه يصح تسميته (خطابات منظومة) كان الشاعر يضمنها بعض ما إلى المخلوق السعيد الذي أعاد الحياة إلى قلبه، والإيمان إلى روحه، وإن تكن حياة كلها شكوى وشك وغيره، وإن يكن إيمانا قلقا مزعزعا ينضح بالدموع والآلام

لقد ذكر رامي لصديقي الشاعر الذي سفر بيني وبينه تمهيداً لكتابة هذه الفصول أن لديه مجموعة كبيرة من الشعر الذي نظمه في خلال هذه الحقبة الطويلة من عمره ولم ينشره؛ وقد حاولت أن أطلع على هذه المجموعة ولكني لم أشهدها لأن السفر أعجزني عن ذلك. ومهما يكن من أمر هذه المجموعة، فرامي مقصر ولا شك، وثروة الشعر العربي لن تفتأ تطالبه بعشرة أجزاء من ديوانيه الخالد الذي كان يصدره بمعدل جزء عن كل عامين؛ ونحن لا نشك في أن إنتاجه الشعري قد أصبح قلة في جانب إنتاجه الغنائي، وإن يكن قد أودع أغانيه كل ما كان يودع شعره من قطع قلبه وروحه ودموعه. ويسرنا أن نسجل أن شعر رامي القليل الذي نظمه في الشطر الأخير من عمره المبارك (الطويل إن شاء الله) أحسن ديباجة وأرق نسجا، وأحفل بالموسيقى الداخلية من جميع شعره القدم الذي شملته دواوينه الثلاثة؛ ونحن نعني بالموسيقى الداخلية ذلك التوافق الصوتي الجميل الخلاب، الذي اكتسبه رامي بلا شك من طوال اختلاطه بالموسيقيين والملحنين والمطربين.

ولعل القطعة التالية التي شدا بها فؤاده من أجل ولده، والتي تذكرنا في رامي بشاعر الإنسانية، هي خير ما نقدمه دليلا على استنتاجنا:

يا بُنيّ! ما أُحَيْلي يا بُنيّ   أنت ظل مده الله عليّ

نعمة العمر وتذكار الصبى والأمانيّ التي عزّتْ لديّ
لست أنساك جنينا خافيا في ضمير الغيب أدعوك إليّ
أتمناك لعيني قرة حين ألقاك وليدا في يديّ
أرقب اليوم الذي تبسم لي وترى آي الرضى في مقلتيّ
فأناجيك بألحان الهوى سابقات خاطري في شفتي
كلمات هي لا معنى لها غير أن تسمع مني أي شيء
فتراعيني ولا تقوى على غض أجفانك عني يا بُنيّ!

وتشبه هذه القطعة في موسيقاها الداخلية قطعة (القمرية) المنشورة بعدها في مجموعة مكتبة النهضة (١٩٤٢) إن رامي يستطيع فيما نعتقد أن يعدل في إنتاجه بين أغانيه المصرية وبين شعره هذا الجميل الرائع العذب.

ولولا أنني أوثر ألا أنزلق إلى الخوض في قضية العربية والعامية الآن، لأشرت على رامي بإيداع معانيه (البكر)، التي لفتت نظر حافظ من قبل، والتي ضمنها أغانيه المصرية، حينما وضعت هذه الأغاني على أشعار رامي، لأشرت عليه بإيداعها بعض قصائده، ليكسب بها الشعر العربي ثروة ثمينة خالدة. ولكن. هل هذا مستطاع

٢ – ولن نعرف الرحمة ولا (الذوق!) ونحن نأخذ على رامي حنانيه على الغناء المصري، أو الغناء العربي الحديث، بتركه تلك الفرصة الذهبية النادرة التي أتاحها الله له ليجدد لنا غناءنا تجديدا كاملا شاملا، ولتوسيع آفاق أغانينا بإدخال الأوبرا والأوبريت، اللتين لا بد أنه يعرفهما معرفة جيدة، ويزن الفائدة الجليلة البعيدة الأثر التي كانت تعود على الموسيقا العربية ـــ أقصد المصرية – والغناء المصري، لو أنه استغل هذا (التخت) العظيم الذي عاش أكثر من عشرين عاما (يجتر) أغانيه ويرددها ويسندها ويبدأ ويعيد فيها.

لقد أساء رامي استغلال هذا (التخت) العظيم، كما أساء استغلال دخول الآنسة أم كلثوم – في حياته، فلم يوجه فيها أغانينا التوجيه الصالح الواسع الأفق، الذي يخرج بتلك الأغاني من (دنيا التخت) إلى دنيا المسرح، وإلى دنيا الأوركسترا الراقصة الطروب اللعوب. وقد يعترض على هذا بأنه ليس من عمل الشاعر الذي ينظم لحساب غيره. ونحن نرد على ذلك بأنه كلام لا يصح أن يعتذر به لرامي المثقف الذي يعرف من فنون الثقافة الشعرية الأوربية أزهى ألوانها وأبدع ضروبها، ويعرف أن الأغنية التي ترسلها أم كلثوم على التخت، غير تلك الأغنية ذاتها إذا أرسلتها وهي تؤدي دورها في مأساة أو ملهاة أو دراما أخلاقية، لأن

الأغنية حينئذ يكون لها جمالها الخارجي الذي يضيفه عليها الموضوع، لا جمالها الداخلي الذي تكسبه من ذاتها فحسب. ورب معترض يقول إن رامي قد صنع هذا الذي نطالبه به في أغنياته الكثيرة التي نظمها للأشرطة السينمائية الإثني عشر التي طلب إليه نظم أغانيها كلها أو بعضها. وأنه مؤلف (وداد ودنانير).

ونحن نوافق على أن هذا صحيح وجميل، إلا أنه شيء آخر غير الذي نطالب به راميا. إننا محرومون إلى اليوم من الرواية التمثيلية الغنائية الكاملة أو التي يصل أغانيها وكثيرا من حوارها الشر الخفيف، وهذه الرواية التمثيلية الغنائية شيء عظيم بارع في آداب أوربا وموسيقاها وهو غير موجود إطلاقا في أدبنا أو في موسيقانا. فمن من شعرائنا جميعا – غير رامي – هيأ الله له تلك الفرصة الذهبية النادرة من حيث اتصاله بالموسيقيين والملحنين والمطربين ثم أساء استغلالها كما أساء استغلالها رامي، فلم ينتفع بها في إحداث تلك الثورة التي سوف تظل أغانينا ناقصة معيبة شوهاء ما لم يجرفها تيارها، وما لم تحترق في نارها فتخرج زكية سنية ذات روح وذات لألاء وذات جوهر نقي مُصفى

٣ – ولعل غلطة رامي في ذلك – أنه قصر صداقته الفنية على أبطال موسيقي (التخت) – وهم – مع إجلالنا لهم وإعجابنا بهم والإشادة بذكرهم في غير مناسبة، قوم أميون في ثقافتهم الفنية، فهم لا يفهمون ما الأوبرا وما الأوبريت، ومن المحال أن تطالبهم في ذلك المكان بشيء هو ضد طبائعهم، وعكس سلائقهم الفنية، التي لا تزيد كثيرا على تكرير الغناء وتسنيده أو التمهيد له – ولذلك فنحن نستحثهم أن ينتفعوا بفرصة معهد الموسيقى والغناء المسرحي، فلا يدعوها تفلت منهم، لأن في إفلاتها القضاء عليهم. وهذا موضوع آخر له حينه ومقامه إن شاء الله

نريد أن نعيب على رامي عدم انتفاعه بأحد ممن ثقفوا الموسيقى الغربية ومرنوا فيها، بل برزوا في التأليف بها.

والمؤلم أنه يعرف الكثيرين منهم، وأن الكثيرين منهم يعرفونه. والرجل الذي تضعه المقادير في المكان الذي يهيئ له القيام بثورة إصلاحية ثم ينكص على عقبيه، فلا ينتهز الفرصة التي هيأتها له هذه المقادير هو رجل مقصر بلا ريب، إن لم يكن شيئا آخر لا نؤثر التعبير به

٤ – ويزيد في أسفنا – بهذه المناسبة – إعراض رامي عن التأليف للمسرح في دائرة اختصاص مواهبه الشعرية: ولعل الذين لا يعرفون ماضي رامي المسرحي يسألون: وما بال رامي، وما بال مطالبته بشيء لم يدرسه، أو لم يألفه؟ فعلى هؤلاء أن يعلموا أن راميا قد خدم الثقافة المسرحية في مصر خدمة طيبة سيذكرها له الذاكرون دائما؛ فقد أخذ نفسه بترجمة مجموعة كبيرة من أشهر الروايات مثلت جميعا على المسرح

المصري، وخلبت الباب نظارتها بجمال أسلوبها وحسن اختيارها ومرونة ترجمتها حتى تلائم المتوسط العام لجمهور مسرحنا، ومن هذه الروايات هملت ويوليوس قيصر والعاصفة والنسر الصغير، ويهوديت وفي سبيل التاج وجان دارك وشالون كورداي وسميراميس. وبمجرد ذكر أسماء هذه الروايات يذكرنا بماضيها المسرحي الناجح في المسرح المصري. ولست أدري كيف يبلغ رامي هذه الدرجة من المجد الشعري، وكيف يبذل كل هذا المجهود في دنيا المسرح ولا يفكر مطلقا في نظم الدرامة المسرحية. ماذا نسمي هذا التقصير الذي يحدث هوة سحيقة في مجد رامي؟ وما سبب هذا التقصير يا ترى؟ هل سببه أنه كان يخضع لمقتضيات البيئة الفنية التي كان يعمل لحسابها؟! تلك البيئة التي صرفته – أو أوشكت أن تصرفه – عن قول الشعر، وعن التفكير في نظم الأوبرا أو الأوبريت، لقد حاول رامي مرة أن ينظم الدرامة المسرحية، وكانت محاولته جيدة ناجحة، وذلك حينما نظم (غرام الشعراء) التي نشرها (في الرسالة) (على ما اذكر)، والتي مثلتها إحدى الفرق المصرية ولا تزال محطة الإذاعة الحكومية تعيد إذاعتها بين الحين والحين. فماذا وقر في ذهن رامي بعد هذه المحاولة؟

٥ – ومما يؤخذ على رامي أنه وقف بتجديده في الأغاني المصرية عند حد الابتعاد بها عن الابتذال القديم، وتوسيع افقها بتضمينها تصوير الطبيعة المصرية والإفاضة في تحليل العواطف الإنسانية مما أشرنا إليه من قبل، ومما شكرناه لرامي الشكر الذي يستحقه؛ وقد كنا نطمع من رامي أن يذهب في التجديد إلى أبعد من هذا الحد، فكان يحاول مثلا نظم الأغاني القصصية التي حرم منها الشعر المصري الحديث ذلك الحرمان المزري المعيب، فعسى أن يتحفنا الشاعر الذي عمر حياتنا بأعذب ألحانه وأرق أغانيه بهذا اللون المفقود في غنائنا المصري. القديم والحديث

٦ – كان أن رامي موفقا في معظم أناشيده. إلا أنها وا أسفاه جاءت كلها أناشيد غنائية يصعب على الجماعة أداؤها. وليس ذلك لطبيعة تلحينها كما يتبادر إلى الذهن أول الأمر، ولكن لطبيعة تأليفها دخل كبير في ذلك. ومن السخف أن نطالب رامي بنشيد قومي. ولكن من الواجب أن نطالبه بأناشيد مصرية متنوعة يسجل فيها رامي بأسلوبه الساحر وتصويره الشاعر ونظمه العذب الدقيق: مصر الحديثة الناهضة، مصر الفلاحة العاملة. مصر التي تذهب كل صباح إلى الكتاتيب والمدارس والجامعات. مصر المتضامنة التي تأبى أن تتخلف عن قافلة المدنية. تلك القافلة التي جد بها المسير

٧ – أما لغة رامي، وموسيقى شعره الخارجية. أعني أوزانه وبحوره وقوافيه. فالنقد الذي يعنى بالناحية الجدية يستحيي أن نقول فيها شيئا. عاش رامي حياة طويلة طيبة، تنبض بالحب في قلب مصر الحديثة، وعاش لمصر والشرق يملأهما شدوا وغناء وتجديدا.

دريني خشبة